مقاصد الاعجاز القرآني عند الإمام ابن عاشور

. د . مثنى أحمد السامرائي
د . ايهاب محمد السامرائي

ملخص البحث

يتحدث البحث عن اراء الإمام ابن عاشور الذي يعد من أبرز علماء المسلمين الذين اعتنوا بعلوم الشريعة الدينية والانسانية عموماً ، وقد كان تفسيره حافلاً بجملة من العلوم والمعارف التي تبرز حقائق القرآن ، وقد مثلت المقدمات العشر التي صدرها لكتابه الكبير "التحرير والتنوير" المباحث التأصيلية والقواعد التأسيسية التي يتأسس عليها علم التفسير ، ودرس الباحث مقدمته عن الاعجاز القرآني .و ركز الباحث على جملة من المحاور التي تظهر المقاصد الشرعية للإعجاز القرآني في الكتاب من خلال أوجه الاعجاز التي تناولها الامام في تفسيره . ودرس البحث ثلاثة محاور: المحور الأول: الاعجاز القرآني سياق التأسيس وتحديات التوظيف. و المحور الثاني : مقاصد الاعجاز القرآني. و المحور الثالث : مجالات مقاصد الاعجاز القرآني . وختم بحثه بنتائج منها: تمثل جهود الامام ابن عاشور اضافة مضيئة لاستنباط أوجه الاعجاز وتقنينها وترتيبها وتركيبها وتبويبها وتلقيبها وتقريبها ، وعدم الاكتفاء بالتلويح بالتحدي الرباني ، بل أظهر جملة من صور التميز والابداع والاعجاز الذي يكتنزه الكتاب العزيز.

The Purposes of the Quranic Miraculousness in Imam Ibn Ashour

. Dr . Muthanna Ahmed Samarrai
Dr . Ihab Mohammed Al Samurai

Abstract

The research studies Imam Ibn Ashour views about the Quranic miraculousness. Ibn Ashour is one of the most prominent Muslim scholars who have taken care of the sciences of religious legislation and humanity in general . He interprets a wide range of sciences and knowledge that highlight the facts of the Qur'an. The ten tenets issued by his great book "Liberation and enlightenment" is considered the original base and rules for the science of interpretation. The researchers study the author's introduction and they focus on a number of issues that clarify the purposes of the Qur'anic miraculousness in Ibn Ashour's book .The study examines three dimensions: The first dimension deals with Quranic miraculousness as a context based and functions challenges. And the second one tackles the purposes of the Quranic miraculousness .whereas the third dimension discusses the purposes aspects of Quranic miraculousness . The research is ended with the following results: Ibn Ashour's efforts are glimpsing light for the development of the miraculousness ,for example , its codification, arrangement, composition, tabulation, polarization and approximation. Furthermore, he does not only signal the divine challenge, but shows a series of images of excellence, creativity and miracles in his precious book.

مقاصد الاعجاز القرآني

عند الإمام ابن عاشور

أ . م . د . مثنى أحمد السامرائي
د . إيهاب محمد السامرائي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد؛ يمثل النظر في النص القرآني أشرف ما صرفت له الهمم وشغلت به الأوقات والأنفاس لما له من قيمة للناظر والنتيجة التي يتحصلها الناظر سواء أكانت علمية أو أثر سلوكي .

وحفلت فنون النظر للمفسر بأبواب متعددة يتناولها في تفسيره وبخاصة تلك التفاسير التي لم يضع لها المفسر مقياساً معيناً كتفسير يتعلق بالأحكام أو باللغة أو البلاغي أو الاشاري .

والتكامل المنهجي والوظيفي لدى المفسر يجعله يأخذ من كل الفنون نصيباً يزين بها تفسيره فيرصعها بجواهر الكلم ونفائس الدرر ، ويعد باب الاعجاز من تلك الفنون التي اهتم بها العلماء قديماً وحديثاً إلا أن للاعجاز العلمي قد كان له في العصر الحديث مكانة كبيرة لما للتطور العلمي من أثر في بيانه وتأييد .

ويعد الإمام ابن عاشور من أبرز علماء المسلمين الذين اعتنوا بعلوم الشريعة الدينية والانسانية عموماً ، وقد كان تفسيره حافلاً بجملة من العلوم والمعارف التي تبرز حقائق القرآن ، وقد تناول في تفسيره أهم المعارف التي تنطوي عليها نصوص الكتاب .

وقد مثلت المقدمات العشر التي صدرها لكتابه الكبير «التحرير والتنوير» المباحث التأصيلية والقواعد التأسيسية التي يتأسس عليها علم التفسير ، ومن أهم المباحث التي تناولها في تفسيره وبحوثه الأخرى مقدمته عن الاعجاز القرآني أوضح فيها كل متعلقات

الاعجاز لفظا ومعاني ، وجوانب الاعجاز ومواقف العلماء من الاعجاز وافانين المعارف التي انطوى عليها النص القرآني .

وقد ركزنا في بحثنا على جملة من المحاور التي تظهر المقاصد الشرعية للاعجاز القرآني في الكتاب من خلال أوجه الاعجاز التي تناولها الامام في تفسيره .

واختصاراً منا : فقد تجاوزنا السيرة العلمية للإمام ابن عاشور «رحمه الله» فهو غني عن التعريف فقد ذاع صيته في العالم الاسلامي ، وقد أنجزت الكثير من الدراسات حول فكره واجتهاده في علوم الشريعة ولا تزال جوانب كثيرة من مؤلفاته تحتاج الى مزيد الاهتمام والعناية .

ولبيان مقاصد الاعجاز القرآني عند الامام ابن عاشور فقد تناولناها في ثلاثة محاور :

المحور الأول : الاعجاز القرآني سياق التأسيس وتحديات التوظيف

المحور الثاني : مقاصد الاعجاز القرآني

المحور الثالث : مجالات مقاصد الاعجاز القرآني

الخاتمة

المحور الأول : الاعجاز القرآني سياق التأسيس وتحديات التوظيف

١. الاعجاز القرآني الدلالة والمفهوم :

إن الإعجاز القرآني من المصطلحات الجديدة في تركيبها واصطلاحها إلا أن مضامينها من العلوم التي اهتم بها العلماء قديماً بتدوينها والعناية بالتأصيل لها وتبويبها وإن لم تكن تحمل هذا المصطلح الجديد بالنوع والقديم بالجنس .

والملاحظ في الموسوعة العاشورية بأنه لا يجتزأ المصطلح والمفهوم بل يقدم رؤية كاملة في تلقيبها ومضمونها للدلالة على المطابقة الحقيقية لمضمون الاعجاز العلمي في القرآني .

ويمكن ملاحظة جملة من الأبعاد المنهجية لدلالة المفهوم :

١-١ الشمول الاصطلاحي :

يعد ابن عاشور الاعجاز القرآني يتمثل في ذات الكتاب العزيز الذي نزل على قلب سيدنا محمد ﷺ وليس مقتصراً على جانب من جوانبه ؛ بل الكتاب بمجموعه يمثل إعجازاً في نظمه وتركيبه ودلالاته المعرفية والعلمية[1].

وتخصيص الاعجاز بالقرآن الكريم لا يعني استبعاد السنة النبوية المطهرة عن محل الاستشهاد والاستنباط ؛ لأن الذات المحمدية يتمثل بها القرآن قولاً وفعلاً وبياناً.

ويوضح الإمام ابن عاشور ذلك بقوله : (ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا. قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا

(١) ينظر : التحرير والتنوير ، الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر (١٩٨٤) ، (١/ ١٠١) .

الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}[1] ... وخلاصة القول فيه أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونقل بعضها متواترا وبعضها نقل نقلا خاصا، فأما القرآن فهو معجزة عامة، ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة، وإن كان يعلم وجه إعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله فيغني ذلك عن نظر مجدد، فكذلك عجز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال عجز أهل العصر الأول)[2].

١ . ٢ . التكامل المضموني :

إن العلوم والمعارف التي تضمنها الكتاب العزيز تعبر عن جملة من العلوم التي سبق استنباطها ولا يزال الكتاب حافلاً بكثير منها ؛ سواء تم استنباط بعضها أم لا تزال أكثرها في خفايا الغيب والتي يجب استنباطها .

وقد عاب الإمام ابن عاشور على كثير من كتب التفسير لعدم تضمنها لكثير من مقاصد الاعجاز ، فحاول أن يسد النقص الذي كان عند السابقين ، فيقول : (ولعلك تجد في هذه المقدمة أصولا ونكتا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن مثل الباقلاني، والرماني، وعبد القاهر، والخطابي، وعياض، والسكاكي، فكونوا منها بالمرصاد، وافلوا عنها كما يفلي عن النار الرماد)[3] .

٢ . ٠ . الاعجاز القرآني وأسباب تراجع علم التفسير:

إن الإمام ابن عاشور يعد من أهم رجالات الإصلاح في العالم الإسلامي ، فقد

(١) سورة العنكبوت : ٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ، (١/ ١٠٢) .

(٣) التحرير والتنوير ، (١/ ١٠١) .

أتاحت له فرصة رئاسته لجامع الزيتونة الوقوف على كثير من أسباب تراجع العلوم الشرعية والانسانية عموماً مما حدى به إلى تشخيص أسباب التراجع العلمي وتقديم إصلاحات نظرية وتأليف كتب علمية لتفادي النقص والتراجع العلوم .

ويعد ابن عاشور بأن أهم أسباب تراجع العلوم عموماً :

١. وجود مسائل لا حاجة إليها يُطال بها التعليم ، وتتوهم في صورة العلم ، وما هي منه .

٢. إهمال مسائل وعلوم مهمة ، أو قل إن شت : هما الزيادة والنقصان[١] .

ولبيان لمحة عن أسباب تراجع العلوم التي كان لها الأثر البارز في ضمور علم الاعجاز العلمي القرآني فسنقتصر على مسألتين :

٢ . ١ . أسباب تراجع العلوم[٢] :

قد ذكر الإمام ابن عاشور جملة من الأسباب التي كان لها أثر في تراجع العلوم عموماً وكانت سبباً في إهمال علوم نافعة لإنشغال المؤلفين بالأعراض عن الجواهر ، ومن أهمها .

٢ . ١ . ١ . الوقوف الفجائي الذي عرض للعلوم

٢ . ١ . ٢ . تداخل العلوم وربط بعضها ببعض .

٢ . ١ . ٣ . طموح النفوس إلى المشاركة في جميع العلوم ، مما جعل التآليف خليطاً من المسائل التي يتوقف بعضها على فهم بعض على نحو طريقتهم في التعليم .

---

(١) ينظر : أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي : دراسة تاريخية وآراء إصلاحية ، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، قرأه ووثقه وقدم له : محمد الطاهر الميساوي ، ط (١) دار الملتقى ، (١٤٣١هـ ٢٠١٠)، (٣١٥)

(٢) ينظر : أليس الصبح بقريب ، (٣١٥ وما بعدها) .

٢ . ١ . ٤ . سلب الحرية عن العلوم بسبب قصر العلم في نظر الجمهور على نقل كلام السلف ، وانحصار التآليف في نقل ما مضى من غير بحث ، وهذا من صنيع شيعٍ متعصبين لتمجيد آراء أساتذتهم ، فعدوا فهم كلامهم نهاية العلم ، وصارت مخالفتهم معدودة من الهوس ، فلم يسع الناس إلا خدمة كلامهم ، وتطويل المسودات بالمناقشات في أفهامهم ، ولذا أصبح المبتكر عرضة للنكاية أو الاضطهاد

٢ . ٢ . أسباب تراجع علم التفسير:

وإن علم التفسير وما تضمنه من كنوز اعجازية على المستوى اللفظ والمعنى قد أصيب هو الآخر بالوهن مما جعل الإمام ابن عاشور يحدد أسباب التراجع ويقدم في تفسيره نظرة تجديدية لتجاوز أخلال التراجع ، والتي أهمها :

٢ . ٢ . ١ . التفسير بين العلمية والمعجمية :

إن الناظر لمجمل التفاسير فإنه يلاحظ بأن طريقة المفسرين بالوقوف عند أسرار ألفاظ كتاب الله تنحو نحو منهج المعاجم اللغوية بالوقوف عند تفسير المفردات منفصلة وكأن النصوص القرآنية لا تنطوي على أسرار تتجاوز الحدود اللفظية للمفردات والتراكيب ، مما جعله يقول : (ما كنت أرى التفسير يعد علماً ؛ إلا لو كان شرح الشعر يعد علماً ؛ ولكني لما رأيت التفسير معدوداً في مقدمة العلوم ؛ لأنه منبع العلوم الشرعية ، ورأيت لأسباب تأخره أثراً قوياً في تأخر كثير من العلوم الإسلامية ، خصوصاً الفقه والنحو واللغة ، أحببت أن أتابعهم في عده علماً)[1]

ويشير الإمام ابن بيّه إلى التأطير المنهجي الذي يجب أن يتعامل معه المفسر ليصل لمقاصد النص فيقول : (النظرة الشمولية التي تعتبر الشريعة كلها بمنزلة النص الواحد :

(١) أليس الصبح بقريب ، (٣٢٧) .

ونحن هنا ننطلق من مسلمة أن نصوص الشريعة بمنزلة نص واحد في نظام الاستدلال والاستنباط ، فمن لم يحط بها علماً ولم يجمع أطرافها لم يسعه أن يفقه معانيها)[1].

٢ . ٢ . ٢ . عدم التمكن من بعض المعارف :

الضعف في علوم يظنونها بعيدة عن القرآن ، وهي ضرورية لمعرفة عظمته العمرانية ، مثل التاريخ وفلسفة العمران والأديان والسياسة .

٢ . ٢ . ٣ . الاستطرادات غير ذات الصلة :

خروج بعض التفاسير عن ذكر العلوم التي لها تعلق بفهم الآية إلى مسائل من علوم متنوعة ضعيفة المناسبة بموضوع تفسير تلك الآية ، فمثلت تلك الاستطرادات خروجاً عن نسق منهجية التفسير فانشغلوا بالأبحاث الجانية وأهملوا أسرار الكتاب ومقاصده[2] .

٢ . ٢ . ٤ . الاقتصار على بعض مجالات الاعجاز :

يحاول الإمام ابن عاشور في تفسيره تقديم رؤية متكاملة لنواحي مقاصد الإعجاز القراني ببيان مجالاته وفنونه ، التي لم يشر لها كثير من المفسرين فيقول : (فأما أنا فأردت في هذه المقدمة أن أُلِمَّ بك أيها المتأمل إلمامة ليست كخطرة طيف. ولا هي كإقامة المنتجع في المربع حتى يظله الصيف . وإنما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزا وتتبصر منها نواحي إعجازه وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته وكل صغير وكبير مستطر. ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمة

(١) مجلة الموطأ ، محددات منهجية في التعامل مع النصوص الشرعية ، العلامة عبد الله بن بيّه ، العدد (١) ، (٢٠١٨م) ، (٢٩) .

(٢)ينظر : أليس الصبح بقريب ، (٣٣٦) .

من قبل. وكنت أرى الباحثين ممن تقدمني يخلطون هذين الغرضين خلطا، وربما أهملوا معظم الفن الثاني، وربما ألموا به إلماما وخلطوه بقسم الإعجاز وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير)[1] .

(١) التحرير والتنوير ، (١/ ١٠١) .

المحور الثاني : مقاصد الاعجاز القرآني

١ . ٠ . الاعجاز القرآني ومقاصد الشريعة :

قد يوحي هذا العنوان لشيء من التمايز والتباين بين المركبين إلا أن هناك خيطاً ناظماً يربطهما وهو الخفاء الذي يكتنف كلا الجانبين ؛ لأن المقاصد تحتاج إلى مزيد من الجهد والنظر للوصول إلى مقاصد النص وأسراه ؛ ويعد باب الإعجاز أكثر غموضاً لأن أسراره لا تظهر على السطح غالباً ؛ فضلاً عن ذلك فإن كثيراً من اسرار الإعجاز تتعلق بتطور الأبحاث العلمية التي تستمد من النص شرعيته .

ولتحديد أوجه الترابط فسنشير للنقاط التالية :

١ . ١ . مفهوم مقاصد الشريعة :

يحدد الإمام ابن عاشور مفهوم مقاصد الشريعة على مستويين :

١ . ١ . ١ . المقاصد العامة : فقد عبر عنها بقوله : (هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها ، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة)[١].

١ . ١ . ٢ . المقاصد الخاصة : وهي (الكيفيات المقصودة للشارع لتحقيق مقاصد الناس النافعة ، أو لحفظ مصالحهم العامة في تصرفاتهم الخاصة، كي لا يعود سعيهم في مصالحهم الخاصة بإبطال ما أُسِّس لهم من تحصيل مصالحهم العامة ، إبطالاً عن غفلة أو عن استزلال هوى وباطل شهوة)[٢] .

---

(١)مقاصد الشريعة الإسلامية ،لشيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور ، تحقيق ومراجعة الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، ط (١) وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، قطر ، (١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م) ، (٣/ ١٦٥)

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية ، (٣/ ٤٠٢) .

وتتمثل مقاصد الشريعة العامة والخاصة الوقوف على أسرار الخطاب الإلهي للبشرية في كافة مجالات الحياة التي تنظم شؤونهم وتزيد ايمانهم كلما تعرضوا للضعف والهوان ، بحيث ينهض أهل العلم في كافة التخصصات لاستنباط أسرار الكتاب .

١ . ٢ . مقاصد الإعجاز القرآني :

إن الإعجاز العلمي له صله تضمنية بمفهوم المعجزة باعتبارها تمثل نوعاً من إحداث أمر كبير من صنف الخوارق للعادة التي لا يستطيع البشر العاديين القيام بها ؛ إلا أن الشارع تكرم عليهم بالقدرة على استنباط أوجه الاعجاز وتصنيفها وتوزيعها على أربابها .

ويعد تخصيص مفهوم الاعجاز بالعلمي لمزيد عناية وتشريف لأهل العلم ، وقد حدد الإمام ابن عاشور معنى العلم المقصود بالإعجاز .

فالعلم على نوعين :

النوع الأول : علم اصطلاحي وهو ما تواضع الناس في عصر من الإعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة .

النوع الثاني : العلم الحقيقي فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا، وكلا العلمين كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه.

وقد تناول القرآن كلا النوعين بمواضع متعددة من كتابه ، والنوع الأول كان متداولاً بينهم لما لعلوم أهل الكتاب من تداول ومعرفة الأحكام والقصص القرآني ، فقاموا بتقنين العلوم وضبط أفانينها ومصطلحاتها ومباني تركيبها .

وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئا

فشيئا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم. وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى في سورة القصص {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}[1] ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة، حتى ارتقى إلى ما لم يألفوه وتجاوز ما درسوه وألفوه[2].

ولأهمية مقاصد الاعجاز كمبحث من مباحث القرآن الأصلية لا التبعية فقد اشترط الإمام ابن عاشور أن يكون مبحث الاعجاز من أهم مباحث علم التفسير بحيث لا يصل كتاب التفسير ومنهج المفسر إلى درجة الكمال إلا بتضمن منهجه الغوص في استنباطه لاستنباط أسرار اعجاز كنوز الكتاب العزيز فيقول : (وإن علاقة هذه المقدمة بالتفسير هي أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك حسبما أشرنا إليه في المقدمة الثانية لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر)[3].

وقد حدد الإمام ابن عاشور جملة من المقاصد العامة للإعجاز القرآني بالمسائل التالية:

١. كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا. قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا

(١)سورة القصص : ٥٠ ..
(٢)ينظر التحرير والتنوير ، (١/ ١٢٦، ١٢٧) .
(٣)التحرير والتنوير، (١/ ١٠٢) .

الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ}[1] وهذا التحدي لا يزال قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [2] .

٢. إبطال عناد من قد يزعم أنه لم يجد فيها دلالة على الصدق ؛ لأن الأمور النظرية معرضة للخفاء وللمكابرة ، فإن خفاء الحق يجزئ المعاند على الإنكار.

٣. دفع الحرج عن خلص المؤمنين بأنهم وإن أمنوا من أن يخالط الريبُ عقولهم ، وأن يغريهم تضليلُ المضللين . إلا أن تلقي العاقل لما لا يفهمه لا يخلو عن حرج عظيم ، والإسلام يأبى الإيقاع في العنت والحرج .

٤. أن القلوب يرين عليها تقادم العهد ، فتنسى الحجة ، فكانت في حاجة إلى مذكِّر بدلائل صدق الرسالة من عصر إلى عصر . وقد كانت الأمم من قبلنا إذا نسُوا ربَّهم وتسربت إليهم الضلالة جائتهم الرسل . فلما جاءت الرسالة العامة الخاتمة ، أودعت عناية الله لهم دلائل مكنونة ، تخرج لهم منها على امتداد العصور دلائل ناصعة .

٥. أن تلاحقَ الدلائل والحجج بعد ظن الإحاطة والانتهاء ، يزيد الحقَّ وضوحاً والمتأملين اطمئناناً . لذلك كان من طرق الجدل والمناظرة أن لا يأتي المستدلُّ على جميع حججه دفعة[3] .

وتتلخص مقاصد الاعجاز القرآني بالتحدي بالكتاب العزيز ليبقى الكتاب معلماً بارزاً من الذات العلية ونبراساً هادياً للأمة المحمدية كلما عصفت بها رياح الوهن .

---

(١) سورة العنكبوت: ٥١ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ، (١/ ١٠٢) .

(٣) ينظر : المعجزات الخفية للحضرة المحمدية ، الإمام ابن عاشور ، مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد (٨) ، الجزء (٩) ، ربيع الأول ، (١٣٥٥هـ) (٥٣٣ ـ ٥٥٣) ؛ جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، جمعها وقرأها ووثقها : محمد الطاهر الميساوي ، ط (١) ، دار النفائس ، الاردن ، (١٤٣٦هـ ٢٠١٥م) ، (٢/ ٦٢٤ ،٦٢٥) .

المحور الثالث : مجالات مقاصد الاعجاز القرآني

تنوعت مجالات النظر في النص القرآني لاستنباط مقاصد اعجازه ، وجاءت مدونة الإمام ابن عاشور بالتأصيل والتقعيد لجوانب مقاصد الاعجاز القرآني ولم تخلو دراساته من الجانب التوصيلي للتدليل التطبيقي على عمق التأصيلات كي لا تبقى الفروع يتيمة ولا الأصول عقيمة .

ويمكن تحديدها بالمجالات التالية :

١ . ٠ . الاعجاز من الجهة اللفظية :

والمقصود بالاعجاز اللفظي هو: ببلاغته وفصاحته اللتين أعجزتا فصحاء العرب وبلغاءهم عن معارضته ، وهذه الجهة أهم جهتي إعجازه لعامة العرب الذين لا يحيطون بعجائب ما حواه القرآن من العلوم ، وغير العرب يثبت لديه الإعجاز من هذه الجهة بضرورة عجز العرب عن معارضته[١] .

وقد تناول الإمام ابن عاشور لبيان الاعجاز اللفظي في شيء اخترعه تحت عنوان «مبتكرات القرآن» فقد ذكر جملة من المبتكرات التي ابتدعها القرآن تخالف طرق العرب في التعبير عن مقاصد خطابها .

وقد أجملها الإمام ابن عاشور في جهتين[٢] :

الجهة الأولى : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب

---

(١) ينظر : معجزة الأمية ، الإمام ابن عاشور ، مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد (١١) ، الجزء (١٠) ، ربيع الثاني ، (١٣٥٨هـ) مايو (١٩٣٨م) ، (ص٤٣٣ ـ٤٤١) ؛ جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، (٢/ ٦١١ ، ٦١٢) .

(٢) التحرير والتنوير ، (١/ ١٠٤) .

مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة. وأما أوجه الابتكار على وجه التفصيل فنذكر منها :

١ . ١ . مخالفة أساليب العرب في شعرهم ونثرهم [(١)]:

إن القرآن جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة . بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته، وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام بل بطريقة تختلف في نظمها وسياقها ومساقاتها وسبكها ومقاصد ترتيبه وتبويبه وتركيبه وتلقيبه وتقريبه .

١ . ٢ . الابتكار في التقسيم والتسوير :

جاء القرآن بابتكارات جديدة بنظام مبتدع على أسلوب التقسيم والتسوير وهي سنة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف ، وهذا الوجه يستنبط من النظرة الإجمالية لطريقة السبك النظمي للألفاظ القرآنية حين تناولها لموضوع معين ؛ وإلا فإنه لا يمكن وضع ألقاب منهجية لهذه الابتكارات إلا باستقراء النظم بشكل عام .

١ . ٣ . الابتكار في أساليب القصص :

ابتكر القرآن طرقاً جديدة للأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودا من أدب العربية إلا نادرا، كان في بعض الشعر كأبيات النابغة في الحية

(١) ينظر : التحرير والتنوير ،(١/ ١٢٠ وما بعدها) .

التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ}(١) إلخ وفي سورة الحديد {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ}(٢) .

١ . ٤ . الابتكار في لهجات السور:

لم يلتزم القرآن أسلوبا واحدا، واختلفت سوره وتفننت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بني على فواصل وبعضها ليس كذلك. وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد، و {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}(٣) ، و {آلم ذَلِكَ الْكِتَابُ}(٤) ، وهي قريب مما نعبر عنه في صناعة الإنشاء بالمقدمات. ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}(٥) و{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}(٦) .

١ . ٥ . الابتكار التضميني :

ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسمى بالتضمين، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف، والتضمين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان.

١ . ٦ . الابتكار في استعمال اللفظ المشترك :

ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال

(١) سورة الاعراف : ٤٤

(٢) سورة الحديد : ١٣ .

(٣) سورة المائدة : ١ .

(٤) سورة البقرة: ٢ .

(٥) سورة محمد ١ .

(٦) سورة التوبة : ١ .

اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإدارة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه.

وهذه الأوجه من الابتكارات قد كان يدركها حذاق العرب فأظهروا عجزهم عن القدرة عن الاتيان بآية واحدة على هذه الأنساق ذات التراكيب والأفانين المنتظمة ؛ وعدم التصريح بها في تلك العصور كشأن كثير من العلوم التي لم يكن الداعي قد فرض تدوينها ووضعها في قوالب منهجية ، وكانت العصور اللاحقة أكثر حاجة للوقوف عند أسرار الكتاب لزيادة الإيمان بآياته بعد فترات الوهن التي أصابت الأمة ، وكذا تعد معارفه مصدراً لهداية الأمم الأخرى فكلما ازداد الانسان معرفة خضع لقدرته سبحانه .

٢ . ٠ . الاعجاز من جهة المعاني :

ويوضح الإمام ابن عاشور الاعجاز بالمعاني بالقول : (لقد أراد الله تعالى أن يجعل لرسوله برهاناً على أن القرآن منزَّلٌ إليه من الله ... وجعل الرسول أُمِّيّاً لتقوم الحجة بأميته على أن ما حواه القرآن من العلوم والحكمة والقوانين التشريعية ما هو إلا وحيٌ من الله ، ويلتحق بالقرآن في هذه الجهة من الإعجاز كلُّ ما صدر عن رسول الله من قول وفعل مما هو هدى محض . فتم بالأمية دليلُ خرق القرآن للعادة من جهة الإعجاز الثانية)[1]

ويحدد الإمام ابن عاشور أربعة أوجه للأعجاز بالمعاني :

١. بما تضمنته من أخبار الرسل والأمم مما لا يعلمه إلا أحبار أهل الكتاب
٢. بما تضمنته من الحكمة السامية والقوانين الصالحة .

(١) معجزة الأمية ، مجموعة مقالات ورسائل ، (٢/ ٦١٢ ،٦١٣) .

٣. الحقائق العلمية الجليلة أو الحقائق التي تبينت للناس بعد أن دلهم العلم عليها وشهد العلماء بها .

٤. الحقائق التي سيشهد بها في مقتبل الأزمان

وإن القرآن قد تضمن هذه الأوجه من الاعجاز والابتكار على نسق معرفي استنبطه العلماء على وفق تخصصات معينة انفصل بعضها عن علم التفسير ، وبقي بعضها مصاحباً له تُعاد قراءة النصوص من خلالها كل فترة بحسب الاكتشافات العلمية التي تحفل بها العلوم الطبيعية وغيرها .

- **ولتحديد أوجه الاعجاز فسنقتصر على أربعة أوجه :**

٢. ١ . الاعجاز في مقاصد القرآن :

يعد الإمام ابن عاشور من القلائل من العلماء الذين أشاروا إلى مقاصد القرآن التي جعلها محل النظر لاستنباط أوجه الاعجاز والابتكار في أفانينه ، وقد حددها بثمانية مقاصد كبرى تضمنها الكتاب العزيز[١] .

١. إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما.

٢. تهذيب الأخلاق قال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[٢]

٣. التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. قال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} [٣] {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

(١) ينظر : التحرير والتنوير ، (١/ ٤٢، ٤٣) .

(٢) سورة القلم:٤ .

(٣) سورة النساء: ١٠٥ .

الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}[1] . وعلم مقاصد الشريعة الذي يتضمن الحديث عن أسرار التشريع قد تناولها العلماء بشيء من التأطير النظري والتوصيل العملي بما لم يدع مجالاً للإضافة ؛ وقد انبرى الإمام ابن عاشور لسد خلة باب المعاملات التي لم يهتم بها العلماء إذ صبت جهودهم على استنباط مقاصد العبادات فقط .ونجده يقول : (وإني قصدت من هذا الكتاب خصوص البحث عن مقاصد الإسلام من التشريع في قوانين المعاملات والآداب ، التي أرى أنها الجديرة بأن تخصَّ باسم الشريعة ، والتي هي مظهر ما راعاه الإسلام من تعاريف المصالح والمفاسد وتراجيحها مما هو مظهر عظمة الشريعة الإسلامية بين بقية الشرائع والقوانين والسياسات الاجتماعية ، لحفظ نظام العالم وإصلاح المجتمع)[2] .وقد جاء القرآن بأسلوب بديع يجمع بين جملة من أوجه الابتكار والاعجاز في النص الواحد فيستنبط كل عالم ما يلوح له من أفانين المعارف ، (نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما: مقصد الموعظة ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما يحتاجون أن يعلموه وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}[3] هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها)[4] . وقد تناول الإمام في كتابه جملة من المباحث المقاصدية تأطيرا وتوصيلاً في باب المعاملات بحيث قدم جملة من التفسيرات

(١) سورة المائدة: ٤٨ .
(٢) مقاصد الشريعة ، (٣/ ٢٨) .
(٣) سورة آل عمران : ٧ .
(٤) التحرير والتنوير ، (١/ ١١٦ ، ١١٧) .

المقاصدية التي تعد نبراساً يهتدي بها العلماء.

٤. سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة

٥. القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم قال {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (١)

٦. التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً}(٢) وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم. وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء فجاء القرآن بقوله {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (٣).

٧. المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

٨. الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدي لأجله بمعناه

(١) سورة يوسف : ٣ .
(٢) سورة البقرة: ٢٦٩ .
(٣) سورة العنكبوت: ٤٣ .

والتحدي وقع فيه {قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ}[1] ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه.

٢ . ٢ . الاعجاز القرآني في المعاني الحكمية والإشارات العلمية:

إن العرب لم تكن لهم صنعة يبرزون بها إلا صناعة الشعر ، فلم تتضمن أشعارهم حقائق علمية يبرهن عليها وإنما هي عبارة عن صنوف من أنواع الشعر كالمدح والهجاء والرثاء وغيرها ، أما كتاب الله عز وجل فكان ينطوي على أسرار عالية سواء ظهرت لهم في حينها أم ظهرت لأجيال أخرى اقتضتها حكمة الله في التأخير لمزيدتثبيت القلوب المؤمنة وإقامة الحجة على أهل العلوم الأخرى .

وقد أفاض الإمام ابن عاشور في بيان الإعجاز العلمي في القرآن الكريم حين رد على الإمام الشاطبي حيث يقول : (: لا يصح في مسلك الفهم والإفهام إلا ما يكون عاما لجميع العرب. فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه)[2].

وقد بين أوجه الخلل في هذا القول بستة أوجه :

الأول أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل لما قدمناه، قال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا}[3] .

الثاني أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة.

---

(١) سورة يونس: ٣٨.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ، الامام الشاطبي ، تحقيق : مشهور بن حسن ال سليمان، ط (١) ، (١٤١٧ه ـ ١٩٩٧م) ، ((٥/ ٢٧٤) .

(٣) سورة هود : ٤٩ .

الثالث : أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه يعنون معانيه ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه.

الرابع : أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة.

الخامس: أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوما لديهم فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام، وتحجب عنه أقوام، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

السادس: أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضا[1].

ويشير الإمام ابن عاشور إلى جانب آخر من العلاقة بين العلوم وكتاب الله فيقسمها على النحو التالي[2] :

الأولى : علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية : علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات.

الثالثة : علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة : علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر والعيافة والميثولوجيا، وإما لأنها لا

(١) التحرير والتنوير ، (١/ ٤٥، ٤٦) .

(٢) التحرير والتنوير ، (١/ ٤٦) .

تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي.

فالإمام ابن عاشور من العلماء الأفذاذ الذين تنوعت مجلات النظر لديهم لاستنباط حقائق النص القرآني تحقيقاً لمقاصده وتأكيداً على اعجازه لفظاً ومعنى .

وهنا لابد من الحديث عن مكانة العلوم من نصوص الشريعة من خلال النظرات التالية:

النظر لها من حيث السبق في الوجود والاكتشاف : مما هو معلوم بأننا نحن المسلمون نؤمن بأن ما ورد في كتاب الله سبق وجود المخترعات لأننا نتكلم عن كتاب الله القديم ، والاكتشاف يعبر عن صور الانكشاف الذي يأتي مطابقاً لما ورد في الكتاب وأقواله ﷺ .

النظر لها من البحث عن الحكم أو التأييد أو الاستئناس : ومن الأسئلة التي تُطرح هل الاكتشافات العلمية اليوم التي يكتشفها العلماء في الفلك والطب وغيرها هل تبحث عن حكم لشرعيتها أو لتأييد وتصديق لما ورد في كتاب الله أو مجرد الاستئناس .

وأعتقد بأن الاعجاز القرآني الذي يتعلق باللفظ ينبري له العلماء بالبيان والتأصيل له تأكيداً وتبويباً وترتيباً وتركيباً وتقريباً وتلقيباً ؛ أما فيما يتعلق بجانب المعاني فإن العلماء في أغلب يتلقوها تارة على التسليم المطلق ويكون للتطور العلمي تأييد لتلك الحقائق ، وفي بعضها يكون لبعض النصوص تفسير لا يدل بالمطبقة فيأتي التطور العلمي ببيان كثير مما خفي على المفسرين فيعدلون عن الرأي السابق ويسيرون مع الرأي الذي يؤيده العلم الحديث .

وقد وجدت نصاً للإمام يوضح جانباً من التوفيق بين التطور العلمي وتفسير النص القرآني يتعلق بجري الشمس فيقول : (فإنه أثبت للشمس جرياً ، ولا شك في أن إطلاق الجري على تنقل جرم الشمس من حيز إلى حيز في دائرة فلكها المفروضة إطلاق مجازي ؛ لأن حقيقة الجري هو نوع من مشي الحيوان ذي الأرجل مشياً سريعاً ، وإنما تنقل

الشمس تنقل دحرجة وتقلقل ، وأطلق عليه الجري بعظيم أبعاد المسافات التي تقطعها الشمس . فللتوفيق بين معاني القرآن وقواعد العلوم يتعين حمل الجري في هذه الآية على تنقل الشمس في فلكها الذي تتم به دورة العام الشمسي ؛ لأن إسناده إلى الشمس إسناد حقيقي والأصل في الإسناد الحقيقة ، وهذا هو المناسب لقرنه بمنازل القمر في الجملة المعطوفة لقوله تعالى { وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ}[1] ، فإن منازل القمر ثمان وعشرون منزلة ينتقل في دائرتها من مبدأ إلى نهاية في مدة شهر قمري ، وهو نظير تنقل الشمس في دائرة بروجها في مدة عام شمسي)[2] .

٢ . ٣ . الاعجاز القرآني في الاخبار عن المغيبات :

إن القرآن الكريم تضمن آيات كثيرة تخبر عن أمور مغيبات فوقعت كما أخبر عنها الباري فزاد الناس إيماناً بالكتاب العزيز ، وهذا الوجه ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالة فصاحته وبلاغته على المعاني العليا لأن مقاصده مختلفة ، ولا هو كثير في القرآن، وقد تضمن تفسير الإمام الكثير من الأمثلة الدالة على ذلك ، كقصة الروم وفتح مكة وغيرها[3] .

ويمكن لنا تحديد بعض مقاصد الاعجاز الغيبي في القرآن :

٢ . ٣ . ١ . رفع شأن الأمة الأمية :

إن أهل الكتاب كانوا يتميزون على العرب بمعرفتهم أخبار الأمم السابقة ، فجاء الله بآيات تتعلق بمغيبات عن تلك القصص ليتحدى أهل الكتاب (أن قصارى علم

(١) سورة يس : ٣٩ .

(٢) تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة ، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، ط (٢) ، دار السلام القاهرة، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م) ، (١٧٨ ، ١٧٩) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ، (١/ ١٣٠) .

أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحديا عظيما لأهل الكتاب، وتعجيزا لهم بقطع حجتهم على المسلمين، قال تعالى {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا}[1] فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين)[2].

٢ . ٣ . ٢ . رفع همة الأمة للتطلع إلى سيادة العالم :

إن عالم الشهادة والغيب بيد الذات العالية وقد رتب الأسباب على مسبباتها ، وقد جعل في ذكر احوال الأمم دافعاً للنهضة ، وقد ذكر الباري جملة من النتائج التي من سار عليها وصل إلى ما وصلت إليها الأمم الأخرى ، وهو كله في أستار الغيب .

ويتحقق المقصد (أن ينشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العامي أن يرعى غنيمة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبح كالأتباع للفرس والروم، فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس. والشام ومشارفه تبع لسيادة الروم. وبقي الحجاز ونجد لا غنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم في رحلاتهم وتجارتهم)[3] .

---

(١) سورة هود :٤٩ .

(٢) التحرير والتنوير ، (١/ ٦٥) .

(٣) التحرير والتنوير ، (١/ ٦٧) .

٢ . ٤ . المعجزات الخفية للحضرة المحمدية :

إن هذا عنوان لمقال نشره الإمام ابن عاشور في مجلة الهداية سنة (١٣٥٥ه) للتركيز على جانب مهم من أوجه الابتكار والاعجاز في قوله ﷺ وفعله .

وإن المعجزات النبوية كان القصد منها في الغالب إبراز صدق دعوته وتغلبه في التحدي وتثبيت المؤمنين الذين حضروا معه ومن يأتي من بعد .

ولتحديد أوجه الاعجاز الخفية للحضرة المحمدية فسنشير للتالي :

٢ . ٤ . ١ . التأصيل للإعجاز الخفي والظاهر للحضرة المحمدية :

قد تناول الإمام جانب التأصيل للإعجاز للحضرة النبوية في مواضع متعددة ، نكتفي بقراءاته المتعددة للحديث الذي روي في صحيح البخاري حيث يقول : «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي أو أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي وإني أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[١]

وقد استنبط جملة من الاشارات والنكت في مواضع للدلالة على تحقيق الاعجاز في مدلول نصوصه ، وهي[٢] :

النكتة الأولى : أن قوله «ما مثله آمن عليه البشر» اقتضى أن كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه فيؤمنون على مثل تلك المعجزة. ومعنى آمن عليه أي لأجله وعلى شرطه، كما تقول على هذا يكون عملنا أو اجتماعنا .

النكتة الثانية : أن قوله وإنما كان الذي أوتيت وحيا اقتضى أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالا لا أقوالا، كقلب العصا وانفجار

(١) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ، رقم الحديث (٤٩٨١)، (٨٢٩)

(٢) التحرير والتنوير ، (١/ ١٢٩) .

الماء من الحجر، وإبراء الأكمه والأبرص، بل كانت معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يبتغي إدراك ذلك من البشر ويتدبره ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا إذ قد عطف بالفاء المؤذنة بالترتب، فالمناسبة بين كونه أوتي وحيا وبين كونه يرجو أن يكون أكثرهم تابعا لا تنجلي إلا إذا كانت المعجزة صالحة لجميع الأزمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لأجل معجزته أمما كثيرين على اختلاف قرائحهم فيكون هو أكثر الأنبياء تابعا لا محالة، وقد تحقق ذلك لأن المعني بالتابع التابع له في حقائق الدين الحق لا اتباع الادعاء والانتساب بالقول.

النكتة الثالثة : لفظ «الوحي» وإن كان يتبادر إلى القرآن وهو بحق أجل أنواع الوحي ، لكن مما يدخل في الوحي أيضاً معظم أقوال الرسول وأفعاله في التشريع والهدي والمعارف ، مما أظهره إلى الناس تصريحاً أو رمزاً[1] .

٢ . ٤ . ٢ . المعجزات المحمدية لها صفة الدوام :

إن المعجزات واقتران الإعجاز في منطوق نصوصه ﷺ ومدلولاته لها مما للكتاب من المكانة في الدوام ، وادخار اظهار أسرارها ليكون للاحق ما للسابق من شرف الايمان والتصديق(وهذا النوع أيضاً يمت بصلة إلى إعجاز القرآن في الدوام ؛ لأن جزئيات هذا النوع غير منحصرة ، وإذاً لا يهتدي إليها إلا النظارون المنصفون ، ومعظمهم ممن يجيئون بعد وفاة رسول الله . فالذي يهتدي منهم إلى إظهار معجزة من هذا النوع والذي يبلغهم ما اهتدى إليه ذلك المهتدي ، كل أولئك يأخذون بحظٍّ مما أدركه أصحاب رسول

(١) المعجزات الخفية للحضرة المحمدية ، (٢/ ٦٢٤) . وينظر : النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح ، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ،ط (١) دار السلام القاهرة ، (١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧م) ، (١٩٢ ، ١٩٣) .

الله الذين شاهدوا معجزاته ، فتُجَدَّد لهم وبهم دلائلُ الإيمان ، وتعود أنواره فيهم وفي عصرهم ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ويدخل الناس بذلك في الدين زرافاتٍ ووحداناً ، فبهذه الخصيصة يشارك هذا النوع معجزة القرآن في الدوام وعدم الانتهاء)[1] .

والذي نقصده بصفة الدوام بأنها قابلة للاستنباط والتوظيف إلا أنها تختلف رتبتها عن معجزات القرآن لأنه وقع به التحدي فقط من جملة أصناف الوحي (انحصار معجزة النبيﷺ في الوحي الذي أوحاه الله إليه ، أي القرآن . والقصر هنا للمبالغة _ وإنما كان الذي أوتيت وحياً _ ؛ لأن القرآن هو المعجزة العامة لسائر البشر في سائر الأزمان ، فغيره من المعجزات خاص ببعض الناس الذين شهدوها ، وليسوا هم جميع البشر الذين أريد منهم الايمان بمحمد ﷺ ؛ ولذلك لم يقع التحدي بغير القرآن)[2] .

٢ . ٤ . ٢ . شهادات العلم :

إن المصطفى ﷺ لم ينطق الا عن وحي وتأييد رباني فجاءت نصوصه مطابقة للواقع، سواء اكتشفت معالمها في عصره أم تأخرت لغايات سامية ولهداية الأمم بها ؛ لأن معرفات الواقع لم تكن متيسره لتصل لحقائق الكتاب ، وقد تلقتها أجيال الأمة المحمدية بإيمان مطلق وتصديق لكل ما تضمنتها رسالته .

ويوضح الإمام ابن عاشور المقصود بالاعجاز الخفي للحضرة المحمدية (نقصد منه ما يتعلق بالتشريع وما يتعلق بالارشاد الخارج عن التشريع إلى مجرد النصح والاصلاح العام ، مثل ما يتعلق بصلاح المزاج ، وصلاح النسل ، ونظام العائلة ، واستقامة العيش الخاص «أي الاقتصاد المنزلي» ، ولأننا نبحث عما نبحث عما ثبت في القرآن وفي السنة ،

(١) المعجزات الخفية للحضرة المحمدية ، جمهرة مقالات ورسائل الإمام ، (٢/ ٦٢٣) .
(٢) النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح ، (١٩٣) .

وهذه مزية في الشريعة الإسلامية زادة عن المقصود وهو التشريع)[1] .

ومن الأمثلة التي أشار لها الإمام[2] :

١. تحريم الزنا والبغاء ، فقد أثبت الطب أن ذلك الاختلاط يجر على النسل ويلات من فساد الأمزجة والأمراض المعضلة .

٢. ومنها النهي عن اتخاذ الكلاب الدواجن ، والأمر بغسل الإناء الذي يلغ غيه الكلب سبعاً إحداهن بالتراب ، فقد كان هذان الحكمان مختصم العلماء المجتهدين في تعليله والتفريع عنه : فمنهم من أخذ من ذلك نجاسة الكلب ، ومنهم من قال : بل ذلك تعبدٌ لم نطلع على علته وهو أقرب ؛ لأنه لما اتضحت العلة الآن ظهر معنى التعبد الذي مال إليه مالك رحمه الله ، فقد قال الأطباء : إن رائحة أرواث الكلاب في البيوت ، ومخالطتها ، تحدث أمراضاً عضالاً ، وقالوا : إن لعاب الكلب يشتمل على جراثيم معدية تحدث أدواء معضلة ، ورأيت من الأطباء من قال : إن تلك الجراثيم لا يظهر منها الإناء أتم تطهير إلا إذا وقعت في التراب .

ويبنى على ما سبق فإن الاعجاز القرآني في قراءات الامام ابن عاشور كان نوعاً من تجديد الدين بتجديد نصوصه وقد تمثل بثلاثة جوانب :

الجانب الأول : تجديد المحتوى : وهي محاولة لإحياء مقاصد إعجاز القرآن ليكون التفسير له منحاً تفاعيلاً بين النص المقدس وتطورات الواقع ؛ ولكي يكون له أثر في تعزيز الإيمان في قلوب متلقي الشريعة .

الجانب الثاني : تجديد الاضافة : القيام بإضافة بعض التقسيمات والأنحاء التي تظهر قيمة الاعجاز القرآني ؛ بإضافة معارف العصر كمصدر تفاعلي مع نصوص الشريعة

(١) المعجزات الخفية للحضرة المحمدية ، جمهرة مقالات ورسائل الإمام ، (٢/ ٦٣٠ ، ٦٣١) .
(٢) المعجزات الخفية للحضرة المحمدية ، جمهرة مقالات ورسائل الإمام ، (٢/ ٦٣١) .

بحيث تكون العلوم متداخلة لخدمة النص القرآني ومتعاضدة معه .

الجانب الثالث : تجديد تصفية : وهي القيام بعملية إزلة للأبحاث والاستطرادات التي انشغل بها المفسرون ، ليكون محور عمل المفسر متجهاً نحو المقاصد الأصلية للكتاب وعدم التعرض للجوانب التبعية والهامشية التي لا تزيد التفسير إلا ابتعاداً عن ميدانه ومحور موضوعاته .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث المتواضع نود أن نسجل جملة من النتائج :

١. إن الإعجاز القرآني من المصطلحات الجديدة في تركيبها واصطلاحها إلا أن مضامينها من العلوم التي اهتم بها العلماء قديماً بتدوينها والعناية بالتأصيل لها وتبويبها وإن لم تكن تحمل هذا المصطلح الجديد بالنوع والقديم بالجنس .

٢. إن علم التفسير وما تضمنه من كنوز اعجازية على المستوى اللفظ والمعنى قد أصيب هو الآخر بالوهن مما جعل الإمام ابن عاشور يحدد أسباب التراجع ويقدم في تفسيره نظرة تجديدية لتجاوز أخلال التراجع .

٣. تنوعت مدونة الامام ابن عاشور بين تأصيل وتفريع وإصلاح وتجديد وتكميل وكان لعلم التفسير النصيب الأكبر إذ عكف على تأليفه قرابة أربعة عقود ، تضمن عشرة مقدمات مترابطة توضح معالم علم التفسير وقواعده وضوابطه ومجلاته ومقاصده اعجازاً وتشريعياً وغيره .

٤. يعد كتاب أليس الصبح بقريب المدونة الإصلاحية التي سجل بها الإمام أغلب آرائه التقويمية لبعث الروح في علوم الشريعة لتأديتها وظيفتها بتشخيص أسباب تراجعها وسبل معالجتها يكمن بتجنب الآفات التي أدت لضمور وظيفتها .

٥. تنوعت اتجاهات التجديد الاعجازي في تفسير الامام ابن عاشور لثلاثة جوانب: الاحياء والاضافة والتصفية .

٦. إن الاعجاز القرآني وقع التحدي فيه بلفظه ومعناه ، لأن اللفظ صيغ بصياغة معجزة لكل البشر ؛ ولأن معناه تحققت به المعارف سواء في عصر تنزيله أو التي أشار لها

في أستار الغيب .

٧. شمول الاعجاز للنص القرآني والنص النبوي بحيث يتم من خلالهما استنباط أوجه الاعجاز العلمي ويبرهن عليهما إلا أن رتبتهما مختلفة إذ للنص القرآني ميزة التحدي .

٨. الاعجاز القرآني شمل كل نواحي الحياة ليقدم للبشرية النوذج الأنسب لضبط سلوكيات الناس وتنظيم حياتهم كي لا يكون الناس باحثين عن حلول خارج منظومة الشريعة .

٩. مثل الاعجاز القرآني مصدراً لبعث الروح الإيمانية في نفوس المسلمين وإزالة الشكوك لدى المرتابين على مدى العصور .

١٠. الاعجاز القرآني مصدر حيوي مقارن لتلاوة القرآن فبمقدار تداوله وانتشاره تنتشر صور اعجازه وبيانه .

١١. الاعجاز القرآني لا يزال يفتح أبواب التحدي للعالمين ليقدم أحد مثل هذا الكتاب على كافة أصنافه وصوره ومجالاته .

١٢. تمثل جهود الامام ابن عاشور اضافة مضيئة لاستنباط أوجه الاعجاز وتقنينها وترتيبها وتركيبها وتبويبها وتلقيبها وتقريبها ، وعدم الاكتفاء بالتلويح بالتحدي الرباني، بل أظهر جملة من صور التميز والابداع والاعجاز الذي يكتنزه الكتاب العزيز .

- **التوصيات :**

ندعو الباحثين والمفكرين إلى مزيد العناية بنصوص الكتاب واظهار صور اعجازه ليزداد الذين آمنوا ايماناً ، وتكون قراءاتهم مصدراً جديداً لهداية الناس جميعاً .

ندعو المؤسسات العلمية أن تتظافر جهودهم لاستنفار الباحثين لاستكتابهم لعمل موسوعة متكاملة للتأصيل للاعجاز العلمي ، خدمة لكتاب الله عزوجل .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

المصادر

١. القرآن الكريم

٢. أليس الصبح بقريب التعليم العربي الإسلامي : دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، قرأه ووثقه وقدم له : محمد الطاهر الميساوي ، ط (١) دار الملتقى ، (١٤٣١هـ ٢٠١٠)

٣. التحرير والتنوير ، الامام محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر (١٩٨٤)

٤. تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة ، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، ط (٢) ، دار السلام القاهرة ، (١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م)

٥. جمهرة مقالات ورسائل الشيخ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ، جمعها وقرأها ووثقها : محمد الطاهر الميساوي ، ط (١) ، دار النفائس ، الاردن ، (١٤٣٦هـ ٢٠١٥م)

٦. صحيح البخاري ، الامام محمد بن اسماعيل البخاري ، تحقيق : راد ابن صبري ابن أبي علفة ، ط (٣) ، دار الحضارة الرياض ، (١٤٣٦ هـ ٢٠١٥م) .

٧. مجلة الموطأ ، محددات منهجية في التعامل مع النصوص الشرعية ، العلامة عبد الله بن بيّه ، العدد (١) ، (٢٠١٨م)

٨. مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد (٨) ، الجزء (٩) ، ربيع الأول ، (١٣٥٥هـ)

٩. مقاصد الشريعة الإسلامية، لشيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور ، تحقيق ومراجعة الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، ط (١) وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، قطر ، (١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م) .

١٠. الموافقات في أصول الشريعة ، الامام الشاطبي ، تحقيق : مشهور بن حسن ال سليمان، ط (١) ، (١٤١٧ه ـ ١٩٩٧م)

١١. النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح ، الإمام محمد الطاهر ابن عاشور ،ط (١) دار السلام القاهرة ، (١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧م)